البـــاب الأول

مفهوم الفصاحة عند البلاغيين والنقاد

الفصـــل الأول : مفهومها الاصطلاحى وعلاقتها بالبلاغـة

الفصـــل الثانى : قواعـــد الفصـــاحة .

الفصل الأول

المفهوم الاصطلاحى

رأينا فيما سبق أن المعنى الاصطلاحى لكلمة « فصاحة » لم يتضح إلا فى العصور المتأخرة ، وأن استعمال هذه اللفظة قد اضطرب بين دلالتها اللغوية وترادفها لكلمة « بلاغة » ، ولنستطيع أن نقول: إنّ المعنى الاصطلاحى للفصاحة قد مر بثلاث مراحل حتى اكتمل ونضج بالصورة التى يراها البلاغيون ، وهذه المراحل هى :

أولا ـ مرحلة النشأة :

وهى المرحلة التى بدأت ملامحها فى الظهور على يد أبى عثمان الجاحظ ومن سار على نهجه .

ثانيا ـ المرحلة الثانية :

وهى مرحلة ظهر فيها مفهوم الفصاحة بصورة منفصلة عن مفهوم البلاغة ، ويرجع الفضل فيها إلى ابن سنان الخفاجى .

ثالثا ـ مرحلة الاكتمال والنضج :

وهى المرحلة التى استقر فيها المفهوم الاصطلاحى للفظة ، وبدأها السكاكى ، وأكملها شراح التلخيص .

وسنفصل القول فى كل مرحلة حتى تتضح معالم الطريق .

أولا ـ المرحلة الأولى :

نستطيع أن نلمح فى هذه المرحلة أن أعلامها قد تحدثوا عن أشياء كثيرة

صارت فيما بعد من شروط الفصاحة وقواعدها ، لكنهم لم يصنفوها تحت كلمة « فصاحة » بل نجدها شرحا لكلمة « بيان » أو « بلاغة » كالذى يرويه ثمامة بن أشرس عن جعفر بن يحيى البرمكى فى شرح كلمة « بيان » فيقول : « . . أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذى لا بد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيدا عن الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل »[1] .

فالسلامة من التعقيد ، والبعد عن التأويل ، من شروط الفصاحة لأنّ ما يؤول هو الغريب الغامض ، والتعقيد قد اشترط البلاغيون خلوص فصاحة الكلام منه ، أما الغرابة فهى شرط فى فصاحة المفرد عند المتأخرين .

ونجد ثمامة بن أشرس أيضا يصف جعفر نفسه فيقول : « ما رأيت أحدا كان لا يتحبس ولا يتوقف ، ولا يتلجلج ، ولا يتنحنح ، ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس الخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه ، أشد اقتدارا ، ولا أقل تكلّفا ، من جعفر بن يحيى[2] .

ووصف ثمامة لجعفر بهذه الصفات يمكن أن يوضع فيما يسمى « فصاحة المتكلم » الذى يجب أن يتمتع بسلامة النطق فيخلو من اللثغة والتمتمة والفأفأة وغيرها ، والاستغناء عن الاشارة يوحى بأنه كان يعطى الكلمات النطق الكامل مع حسن الأداء ومراعاة النبر ، كما أن تجنب الاحتباس والتوقف والتلجلجة دليل على الموهبة وسرعة البديهة التى تمكنه من اختيار أنسب الألفاظ للمعانى المراد التعبير عنها .

ولقد رأينا فيما سبق — أن كلمة بلاغة كانت تفسر بأشياء تضمنتها الفصاحة فيما بعد ، كما استخدمت كلمة « فصاحة » بمعنى « بلاغة » فى فترات مختلفة .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٦ ، عيون الاخبار جـ ٢ ص ١٧٣ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٦ .

ولعل أقرب الذين استعملوا لفظة « فصاحة » إلى مدلولها الاصطلاحى هو الجاحظ ويبدو ذلك من عبارته التى وضّح بها مراد العتابى فى توضيح رأيه فى البلاغة فلقد قال شارحا معنى كلمة « بلاغة » .. « .. كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ » .

ويوضح الجاحظ ماقصده العتابى بالإفهام فى هذه العبارة قائلا : « والعتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة ، وإنما عنى العتابى إفهامك العرب حاجتك على مجارى العرب الفصحاء ..)[٣] .

فالكلام البليغ لابد أن يكون فصيحا حتى يتم الإفهام بطريقة العرب المثقفين أو أصحاب السليقة الخالصة من العرب واللسان الذى لم تشبه شائبة ، لأن القضية ليست إفهاما فقط ، فقد يحدث الإفهام بطرق لاتمت إلى الفصاحة والبلاغة بشىء ، ويؤكد أبو عثمان هذا المعنى قائلا : « .. فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة ، والملحون والمعرب كله سواء ، وكله بيانا ، وكيف يكون ذلك كله بيانا ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه . ونحن لم نفهم عنه إلا النقص الذى فينا ، وأهل هذه اللغة وأرباب البيان لايستدلون على معانى هؤلاء بكلامهم ، كما لايعرفون رطانة الرومى والصقلبى . وأن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم — فنحن قد نفهم بمعرفة الفرس كثيراً من حاجاته ، ونفهم بضغاء السنور كثيراً من إراداته ، وكذلك الكلب والحمار والصبى

---

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٦ .

الوضيع ..)[٤] .

ونستطيع أن نوجز القول فى هذه المرحلة فنقول: إنّ كلمة فصاحة لم تستخدم بصورتها التى استقرت فيما بعد ، ولكنها مع ذلك كان لها جذور متمثلة فى تلك الموضوعات والقواعد التى اشترطها الجاحظ ومعاصروه للبيان أو البلاغة ، كما أن كلمة فصاحة كانت تستعمل كثيراً بمعنى سلامة النطق ، وهذا قريب مما عرف عنها أخيراً ، وخاصة ما ذكر عن التنافر وعيوب النطق والغرابة ، وسيأتى تفصيل ذلك فى حينه — إنْ شاء الله تعالى .

وإذا ما تركنا الجاحظ الذى يمثل المرحلة الأولى فإننا نجد أنفسنا عند ابن سنان الخفاجى الذى ترتبط به ما نسميه :

ثانيا ـ المرحلة الثانية :

وهى المرحلة التى ظهر فيها المفهوم الاصطلاحى بصورة واضحة ويرجع الفضل فيها إلى ابن سنان الخفاجى الذى أشار كثيراً إلى فضل الجاحظ فيما توصل إليه ، ويرى الخفاجى أن العارفين بالفصاحة قليلون ، وأن الأدعياء الذين ينسبون أنفسهم إليها كثيرون، ويرى الخفاجى أن هذا داء قديم قد أعيا أبا عثمان الجاحظ والآمدى من بعده[٥] .

والحقيقة أن الخفاجى قد أقام كتابه « سر الفصاحة » على أساس الفرق بين الفصاحة والبلاغة ، وسيبدو ذلك من تناولنا لمفهوم الفصاحة عنده .

ويفرق الخفاجى بين البلاغة والفصاحة فيقول: « والفرق بين الفصاحة والبلاغة

---

(٤) البيـان والتبيين جـ ١ ص ١٦٢ .
جاء فى رسالتنا « مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ » مفهوم الفصاحة مفصلا عنـد الجـاحظ .
(٥) سر الفصاحة ص ٥٣ .

أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لاتكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى ، لايقال فى كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا ، كالذى يقع فيه الإسهاب فى غير موضعه .. »[٦] .

وهذا التفريق الذى وضعه الخفاجى قد شاع بعده كثيراً واستمر عند كثير من البلاغيين ، واستمر هذا التفريق بعد ذلك أساساً للمفهوم الاصطلاحى الذى نضج فيما بعد .

ويؤكد الخفاجى هذه التفريق بين اللفظتين فى موضع آخر قائلا :

« .. وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هـذا النحو ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزءيها ، فكلامى على المقصود — وهو الفصاحة — غير متميز إلا فى الموضع الذى يجب بيانه من الفرق بينهما على ماقدمت ذكره ، فأما ماسوى ذلك فمام لايختص ، وخليط لاينقسم ، وسأذكر بمشيئة الله مايخطر لى ، ويسنح بفكرى فى موضعه .. »[٧] .

فالفصاحة جزء والبلاغة كل ، وكلامه لذلك عنهما سيكون واحداً إلا فى المواضع التى يجب التفريق بينهما ، ومن أجل ذلك نرى الكتاب كله مقاما على أساس الكلام عنهما .

ولقد اعترض بهاء الدين السبكى على ما قاله ابن الأثير وذلك عندما ذكر أن العلاقة بين الفصاحة والبلاغة علاقة عموم وخصوص ، وأكد بهاء الدين أن العلاقة بينهما علاقة الكل والجزء مؤكدا بذلك ماقاله الخفاجى : « وقال ابن الأثير : البلاغة شاملة للألفاظ والمعانى فهى أخص من الفصاحة ، كالانسان مع الحيوان ، فلذلك نقول : كل بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا .

---

(٦) سر الفصاحة ص ٤٩ — ص ٥٠ .
(٧) سر الفصاحة ص ٥١ .

قلت : هذا الكلام أيضا ظاهر الفساد ، وليست الفصاحة أعم من البلاغة ، ولا العكس ، بل الفصاحة جزء البلاغة ، وإنما هو سمى المركب تركيبا غير حملى أخص ، والمفرد أعم ، وجعل الفصاحة عامة والبلاغة خاصة لاشتمالها على الأمرين ثم عبر عن ذلك بالعام والخاص ، وإنما هو كل وجزء[٨] ..

ولقد اعترض السبكى على حازم القرطاجنى بالاعتراض نفسه الذى سبق أن نقد به رأى ابن الأثير[٩] ..

ومهما تكن الفصاحة فإنها فى رأى ابن سنان نعت للألفاظ بشروط عدة ، وأعلى درجاتها تلك التى قد اكتملت فيها الشروط ، كما تختلف درجات الفصاحة فى الألفاظ بحسب الشروط الموجودة فيها ، كما أن الفصاحة تنعدم بانعدام شروطها أو بوجود شروط مضادة ، وهذه الشروط عند الخفاجى قسمان :

« الأول منها يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شىء من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثانى : يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض[١٠] .

وهذه الشروط التى اشرطها ابن السنان قد صارت فيما بعد متضمّنة فى المعنى الاصطلاحى للفصاحة وسيتضح ذلك فيما بعد إن شاء الله .

ونستطيع أن نشير إلى هذه الشروط إشارة مجملة حتى يظهر الأثر الذى تركه الخفاجى فى المتأخرين بعده .

لقد جعل ابن سنان الشروط التى توجد فى اللفظة الواحدة ثمانية أشياء نوجزها فيما يلى :

١ — تباعد مخارج حروف اللفظة وعلة ذلك فى نظره .

---

(٨) عروس الأفراح فى شرح وتلخيص المفتاح ص ٧٥ .
(٩) عروس الأفراح فى شرح وتلخيص المفتاح ص ٧٥ .
(١٠) سر الفصاحة ص ٥٤ .

٢ — حسن تأليفها وأثره فى السمع .

٣ — أن تكون اللفظة غير متوعرة وحشية ، وهذا الشرط قد صرّح الخفاجى أنه قد أخذه عن أبى عثمان الجاحظ .

٤ — كون الكلمة غير ساقطة سوقية ، وهذا الشرط مأخوذ أيضا عن أبى عثمان الجاحظ .

٥ — أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح ، خالية مما يراه علماء النحو أو الصرف مفسدا ، ونحن نستطيع أن نجد لهذا الشرط أصولا عند أبى عثمان الجاحظ .

٦ — ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره .

٧ — أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف .

٨ — أن تكون الكلمة مصغرة تصغيرا تحسن به .

وهذه الشروط قد انتظمتها البلاغيون فيما بعد فى تعريف الفصاحة كما جعلوا بعض هذه الشروط مضمومة فى شرط واحد ، وسيبدو ذلك فيما بعد .

كما أننا نستطيع أن نجمل شروط القسم الثانى وهى : الشروط التى يجب أن تكون موجودة فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض ، وهى بإيجاز :

١ — ما يوجد من الشروط الثمانية الخاصة بالقسم الأول وله علاقة بالألفاظ المنظوم بعضها مع بعض مثل تجنب الكلمات ذوات الحروف المتقاربة ، ومثل مراعاة العرف العربى الفصيح فى الاعراب والاشتقاق ..

٢ — أن توضع الألفاظ موضعها المناسب حقيقة ومجازا .

٣ — ألا يكون فى الكلام تقديم وتأخير يؤدى إلى فساد المعنى أو الإعراب .

٤ — ألا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجه .

٥ — حسن الاستعارة .

٦ — عدم وضع الكلمة موضع الحشو من أجل القافية أو غير ذلك .

٧ — أن يكون خاليا من التركيب المتداخل أى خلوه من المماظلة .

٨ — عدم استعمال ألفاظ المدح فى الذم أو ألفاظ الذم فى المدح .

٩ — تجنب المصطلحات المهنية أو الفنية .

١٠ — المناسبة بين اللفظين فى الصيغة أو المعنى .

١١ — الإيجاز وحذف فضول الكلام وهذا فى نظره أشهر دلائل الفصاحة والبلاغة .

١٢ — أن يكون معنى الكلام واضحا لا يحتاج إلى تأمل وتفكير .

١٣ — تجنب الخطأ فى استعمال الإرداف والتتبيع (الكناية) .

١٤ — تجنب الخطأ فى استعمال التمثيل (الاستعارة بالمركب) .

وهذه الشروط التى أجملناها تمثل معظم كتابه بل نستطيع أن نقول إنها الأساس الذى قام عليه كتاب سر الفصاحة ، ولقد لجأنا إلى عرض هذا التلخيص ليظهر أمامنا فيما بعد أثر الخفاجى فيمن جاءوا بعده ، ومدى استفادتهم بما كتبه عن الفصاحة . وما استطاعوا أن يضيفوه .

آراء النقـــــاد :

ولنقاد العلماء آراء وملاحظات ساهمت كثيرا فى تحديد المعنى الاصطلاحى للفصاحة بعد ذلك ، ووسعت من موضوعاتها ، ونخص بالذكر كتاب الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى للحسن بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ، وكتاب العمدة لابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦هـ ،ويبرز دورهم فى عدة نواح نستطيع أن نوجزها فيما يلى :

١ — اهتمامهم الكبير بأغاليط الشعراء فى اللفظ والمعنى ، مما دفع البلاغيين فيما بعد إلى اشتراط (الخلوص من مخالفة القياس اللغوى) فى فصاحة المفرد ،

و (الخلوص من ضعف التأليف) الذى استقر وضعه فى فصاحة الكلام ، وهذا من ناحية أخطاء الشعراء اللغوية ، أما أخطاؤهم المتعلقة بالمعنى والتى قد تتبعها النقاد هيأت للبلاغيين مجالا للحديث عن التعقيد الذى صار اشتراط الخلوص منه من فصاحة الكلام . ولقد ظهر اهتمام النقاد بأغاليط الشعراء اللفظية والمعنوية فيما عقده الجرجانى والآمدى عن أخطاء أبى تمام والبحترى والمتنبى وغيرهم من سابقيهم ولاحقيهم من الشعراء[١١] .

٢ — تقصّى النقاد للوحشى من الألفاظ عند الشعراء قد صار من اهتمام البلاغيين واللغويين ، فلقد ردوا (الغرابة) إلى الكلام الوحشى وغيره ، والغرابة قد اشترط البلاغيون خلوص الكلمة المفردة منها[١٢] .

كما أن ما أخذ على الشعراء لاستعمالهم الساقط من الألفاظ قد دخل فى مباحث الفصاحة عندما حذروا من استعمال الساقط السوقى .

٣ — تتبع الصور الخيالية والمجاز قد أتاح للباحثين فى اللغة أن تتعمق نظراتهم إلى المعنى الحقيقى والمعنى المجازى للألفاظ ، مما يساعد على تغاير المعانى المتعلقة بها ، كما قد يؤدى إلى النظر فى غرابة الالفاظ وابتذالها ، وارتباط ذلك بعصر دون عصر[١٣] .

٤ — تناول النقاد لألوان البديع اللفظى كالجناس والسجع — يدخل فى مباحث الفصاحة التى تتناول الحكاية الصوتية ، أو الصورة الصوتية ومدى تناسبها مع معانيها[١٤] .

---

(١١) انظر الوساطة ص ٤ ، ١٥ ، ٤٣٤ ، ٤٤١ ، الموازنة ص ١٣٦ ، ١٥٦ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ .
(١٢) الموازنة ص ٢٧٦ — ص ٢٨٧ .
(١٣) الوساطة ص ٣٤ — ص ٥٤٠ ، الموازنة ص ١٥١ ، ٢٤٣ .
(١٤) الوساطة ص ٤١ ، ٤٤ .

كل هذه الأشياء وغيرها تناوله النقاد له علاقة كبيرة بتحديد المعنى الذى استقرت عليه لفظة فصاحة، وبالموضوعات التى صارت فيما بعد مباحث للفصاحة العربية ، وستتضح علاقة هذه الموضوعات التى أشرنا اليها بقواعد الفصاحة التى سنعالجها فى هذا الباب ، والباب الذى يليه إن شاء الله تعالى .

علاقة عمود الشعر بالفصاحة :

نستطيع أن نقول : إن المفهوم الاصطلاحى لكلمة فصاحة له علاقة وثيقة بالقواعد الفنية التى تعلقت بالشعر العربى ، ونعنى بذلك ماعرف باسم عمود التقليدى كما فهمه النقاد والرواة . فلقد جاء فيما أورده — المرزوقى فى مقدمة ديوان الحماسة عدة أسس يقوم عليها عمود الشعر العربى التقليدى وهى : شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة فى الوصف والمقاربة فى التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لامنافرة بينهما . (١٥)

وهذه الشروط وما لها من مقاييس يرتبط أكثرها بمفهوم الفصاحة وموضوعاتها التى صارت مجالات للبحث . ونخص بالذكر ما أشار إليه فى العمود عن المعانى والألفاظ .

فالمعنى يشترط أن يكون شريفا ومقبولا لدى العقل ، وهل يعنى ذلك أن معانى الشعر لايصح أن تكون سوقية أو شعبية . . . ؟

لقد أوضح أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة أن معانى الشعر قد أصابها التغيير فى القرن الثانى الهجرى ، مما قدأغضب كثيرا من النقاد والرواة وأصبحت القصائد تضم بين جوانحها معانى لاتتصف بالشرف فى نظر أولئك النقاد مثل

---

(١٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١ — ١١ ، اتجاهات الشعر العربى للدكتور محمد هدارة ص ١٦٠ .

الأبيات والقصائد التى تنسب إلى أبى الشمقمق وأبى فرعون السامى . (١٦) وهى قصائد تصف حالات الفقر والجوع التى تمزق صبر أولئك الشعراء .

كما يجب أن نلاحظ أن شرف المعانى مسألة نسبية قد تتغير من عصر إلى آخر، وقد نرى الآن فى عصرنا هذا شعراء قد تناولوا معانى لا تتصف بالشرف إذا قيست بالمعيار القديم ، لكنها فى نظر المحدثين معانى قد تتصف بالعمق أو الجمال أو الابتكار . . . .

لكن الذى يهمنا فى قضية المعنى هو مدى وضوحه وصدقه وملاءمته ، لأن المعنى لا يشرف — قديما وحديثا — إذا اتصف بالغموض والفساد والابتذال وهذا ما يشترطه البلاغيون من وجوب خلوص الكلام من التعقيد المتعلق بالمعنى .

ومن الراجح لدينا أن البلاغيين عندما اشترطوا خلوص الكلام من التعقيد حتى يتصف بالفصاحة — قد كان فى أذهانهم تلك القواعد الفنية المتعلقة بفن الشعر .

أما ما يخص الألفاظ فيما ورد عن عمود الشعر العربى التقليدى فانه يتصل كذلك بالفصاحة ، فلقد وضع مقياس للفظ هو الطبع والرواية والاستعمال ، لكن هذا المقياس يجب أن يتغير إذا وضعنا فى اعتبارنا أن اللغة كائن حى ينمو ويتغير كما يتغير الإنسان فى مراحل عمره ، ولقد تغيرت الألفاظ فعلا ، فلم تعد الألفاظ الجزلة هى المطلب الذى يسعى اليه الشعراء ، ولقد أوضح أستاذنا الدكتور هدارة هذا عندما تحدث عن شعراء القرن الثانى الهجرى ويرى : « أن المحدثين قد خرجوا خروجا متعمدا على عيار اللفظ فى عمود الشعر التقليدى لينقلوا الشعر من أرستقراطية البيئات العلمية ومجالس البلاط إلى الشوارع والأزقة

---

(١٦) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ١٦١ ، ص ١٧٦ — ١٧٩ — الطبعة الثانية دار المعارف سنة ١٩٧٠ .

حيث تحيا طبقات الشعب الغالبة على المجتمع ، وبذلك تراجعت إلى حد كبير الألفاظ الجزلة الضخمة التى كانت تملأ الفم وتقتحم السمع ، وغلبت على شعر المحدثين فى القرن الثانى الألفاظ السهلة الرقيقة الخافتة التى تعتبر ضعيفة فى بيئات العلماء والرواة ، كما يعتبر بعضها ساقطا من ناحية اللغة ، وهى الألفاظ التى كان الشعراء يلتقطونها من أفواه العامة فى السوق أو الطريق، لا من أفواه علماء اللغة ورواتها الذين كانوا مهتمين فى هذا القرن بجمع شاردها وواردها .(١٧) ويتضح ذلك من قصائد أبى الشمقمق والعمانى وأبى فرعون الساسى التى أشرنا اليها وكذلك فى شعر أبى نواس .

ونستطيع أن نلاحظ بيسر العلاقة الوثيقة بين هذا الأساس أو الشرط الذى يقوم عليه عمود الشعر ، فلقد استقر فى مباحث الفصاحة أقوال وموضوعات تتناول صفات الألفاظ ، كالجزالة والفخامة ، والوحشى والسوقى ، والخطأ والملحون ، والمعرب والدخيل والمولد . . كما ظهرت صفات أخرى مثل المترادف والمشترك والأضداد ، مما أتاح مجالا واسعا لعلماء اللغة ، بل ظهرت كتب فى هذه الصفات المتعلقة بالألفاظ ، وسنتناول إن شاء الله أكثر هذه الصفات اللفظية فيما سنكتبه عن عيوب الفصاحة .

فاتصاف الألفاظ بصفة ثابتة أمر ينافى طبيعة تطور الأحياء واللغة كائن حى لابد أو يطرأ عليه تغيير فى الكلمات والتراكيب والأصوات كما يطرأ على الإنسان تغير فى ألسنته وخلاياه .

فعمود الشعر التقليدى له علاقة وثيقة بالفصاحة ويظهر ذلك فيما ذكرناه عن شرف المعنى ووضاعته ، كما يظهر فى جزالة اللفظ وما قد يطرأ عليها من صفات أخرى .

---

(١٧) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى للهجرى ص ١٦٢ .

ونجد أنفسنا الآن أمام ما أسميناه بمرحلة النضج وهى :

ثالثا ـ المرحلة الثالثة :

وهى المرحلة التى اكتمل وتبلور فيها المفهوم الاصطلاحى للفظة فصاحة ، ومن أبرز أعلامها أبو يعقوب السكاكى والقزوينى والسبكى والتفتازانى وغيرهم ممن اهتموا بشرح تلخيص المفتاح .

ويعرف السكاكى الفصاحة قائلا : « . . وأما الفصاحة فهى قسمان : راجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعقيد . وراجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، واستعمالهم لها أكثر ، لا ما أحدثها المولدون ، ولا ما أخطأت فيه العامة .

وأن تكون أجرى على قوانين اللغة . وأن تكون سليمة عن التنافر .

والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثر صاحبه فكرك فى متصرفه ، ويشيك طريقك إلى المعنى ، ويوعر مذهبك نحوه حتى يقسم فكرك ، ويشعب ظنك إلى أن لا تدرى من أين تتوصل ، وبأى طريق معناه يتحصل ، كقول الفرزدق :

وما مثلُه فى الناسِ إلا مملّكا ... أبو أمّه حىٌّ أبوه يُقارِبُه

وكقول أبى تمام :

كثانيةٍ فى كبدِ السّماء ولمْ يكن ... كاثنين ثانٍ إذْهما فى الغار[١٨]

---

(١٨) مفتاح العلوم ص ١٩٦ ـ ص ١٩٧ . ويرى الآمدى فى الموازنة ص ٢٩ أنه يجب أن يقول فى البيت : « ولم يكن لاثنين ثانيا » لأنه خبر يكن ، واسمها الضمير العائد على بابك فليس إلى غير النصب سبيل والا بطل المعنى ومعنى البيت أن بابك صار فى الصلب جارا لما زيار وهو ثانيه فى كبد السماء ، والصلب رذيلة ، ولم يكن ثانيا لاثنين فى الغار لأن تلك فضيلة ، كما يتمثل التعقيد فى قوله ثانى اثنين مع أن عددهما اثنان فقط لان الاثنين أحدهما ثانى الآخر ، وهذا خطأ ، ولو قال كانا اثنين وليس لهما ثالث لكان صحيحا .

ونستطيع أن نرى مباشرة تقسيم السكاكى للفصاحة إلى قسمين : أحدهما راجع إلى المعنى والثانى يرجع إلى اللفظ . ولعل السكاكى يقصد بقوله : « راجع إلى المعنى » ما عرف فيما بعد بفصاحة الكلام، أو ما ذكره الخفاجى عن فصاحة الألفاظ المنظومة بعضها إلى بعض ، ولقد فسر السكاكى ما أسماه « بفصاحة المعنى » بشىء واحد فقط هو « خلوه من التعقيد » لأن التعقيد يغلق الطريق إلى المعنى . وهذا هو الذى قصده الخفاجى فى الشرط السابع والشرط الثانى عشر اللذين يشترطان وضوح المعنى وعدم اللجوء إلى التراكيب المتداخلة والتى تؤدى إلى المعاظلة .

أما الفصاحة التى ترجع إلى اللفظ فلقد وضع السكاكى لها شروطا ثلاثة هى:

١ — كون الكلمة عربية أصلية .

٢ — كونها جارية على قوانين اللغة .

٣ — سلامتها من التنافر .

وهذه الشروط الثلاثة قد أخذها عن الخفاجى والجاحظ من قبله ، فلقد رأينا اشتراط الجاحظ للإفهام أن يكون بكلام العرب الفصحاء . كما رأينا ابن سنان الخفاجى يطالب فى الشرط الخامس من شروط الفصاحة فى اللفظة المفردة أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح . هذا عن كون الكلمة عربية أصلية .

أما عن ضرورة جريانها على قوانين اللغة ، فلقد سبقه الجاحظ والخفاجى فى ذلك ونرى الخفاجى يشترط فى الشرط الخامس أيضا أن تكون الكلمة خالية مما يراه علماء النحو والصرف مفسدا .

أما عن سلامتها من التنافر فلقد أفاض الجاحظ فيه وتبعه الخفاجى فى تفسير التنافر وأسبابه .

فالسكاكى لم يأت بجديد فى تفسير الفصاحة تقريبا ، وينحصر جهده فى توضيح المفهوم الاصطلاحى للفظة وتضمينه لشروطها فى التعريف . بل اننا نرى بوضوح أن السكاكى لم يستوف شروط الفصاحة التى ذكرها ابن سنان .

أما الخطيب القزوينى فإنه يزيد على السكاكى تقسيمه الفصاحة إلى ثلاثة أقسام ، فلقد جعل فصاحة المفرد ، وأخرى للكلام ، وثالثة للمتكلم .

وفصاحة المفرد عند القزوينى هى : « .. خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى .. »[١٩] .

ومردّ الغرابة عند القزوينى هو ، كما يذكر فى الإيضاح ، بسبب كونها وحشية وهو يستشهد على ذلك بما رواه الجاحظ عن عيسى بن عمر النحوى عندما سقط عن حماره .

والشروط الثلاثة قد وردت عن الجاحظ والخفاجى ، كما أن القزوينى الذى لخص « المفتاح » وشرح تلخيصه له قد وضع الخلوص من « الغرابة » كشرط لفصاحة المفرد مكان شرط كونها عربية أصيلة عند السكاكى .

ويضيف القزوينى شرطا رابعا إلى فصاحة المفرد وهو « الكراهة فى السمع » ولكنه لا يضعه فى تعريف فصاحة المفرد لأن فيه نظرا كما يقول[٢٠] .

أما فصاحة الكلام فهى فى نظر القزوينى : « خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد مع فصاحتها »[٢١] .

وهذه الشروط قد ذكرها الخفاجى وأشار الجاحظ إلى بعضها ، فلقد أشار الجاحظ إلى تنافر الكلمات فى أكثر من موضع فى البيان والتبيين ، وكذلك ينصح

---

(١٩) شروح التلخيص ص ٧٥ .
(٢٠) شروح التلخيص ص ٩٠ .
(٢١) شروح التلخيص ص ٩٥ .

ملتمس البيان بالبعد عن التعقيد ، أما الخفاجى فلقد أفاض فى شرح هذه الشروط التى لخصناها فيما سبق .

ويضيف القزوينى إلى هذه الشروط شرطا آخر هو : خلوص الكلام من كثرة التكرار ومن تتابع الإضافات ، ولكنه لم يوضح فى تعريف فصاحة الكلام لأن الخطيب القزوينى يرى أن فيه نظرا[٢٢] .

ويوضح القزوينى المفهوم الاصطلاحى لفصاحة المتكلم بأنها « . . ملكة مقصودة بلفظ فصيح فصيحا ، إلا إذا كانت الصفة التى اقتدر بها على التعبير غير المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه ، وقيل يقتدر بها ، ولم يقل يعبر بها ليشمل حالتى النطق وعدمه ، وقيل بلفظ فصيح ليعم المفرد والمركب . . »[٢٣] .

ولقد وجه شراح « تلخيص المفتاح » للقزوينى بعض المآخذ تخص المعنى الاصطلاحى للفصاحة وسنحاول أن نجملها فيما يأتى : —

أولا : يرى بهاء الدين السبكى أن المصنف قد عدل عن إيراد حد شامل للفصاحة يصدق عليها ، ولجأ إلى فصل تعريف فصاحة المفرد عن فصاحة الكلام . ويرى السبكى أنه لم يأت فى ذلك بجديد فلقد سبقه إلى هذا الخفاجى فى كتاب سر الفصاحة[٢٤] .

ثانيا : أخذ على القزوينى قوله : « الفصاحة يوصف بها المفرد والكلام » فلقد رأى سعد الدين التفتازانى فى مختصره على شرح « تلخيص المفتاح » أن كلمة « الكلام » تشمل المركب الإسنادى وغيره[٢٥] . ويرى ابن يعقوب المغربى صاحب « مواهب الفتاح فى شرح وتلخيص المفتاح » أن هذا الوصف لا يخلو

---

(٢٢) شروح التلخيص ص ١١٢ ـ ص ١١٣ .
(٢٣) شروح التلخيص ص ١٢٤ .
(٢٤) شروح التلخيص ص ٧٣ .
(٢٥) شروح التلخيص ص ٧١ .

من الملابسة[٢٦] . أما بهاء الدين السبكى صاحب « عروس الأفراح » فيرى أن جعل الفصاحة للمفرد والكلام يهمل المركب الإضافى مثل « عبد الله » والجملة الموصول بها ، كما لا يدخل فيه كل واحدة من جملتى الشرط وجوابه ، ويرى أنه كان من الأفضل للقزوينى أن يضع كلمة « المركب » مكان « الكلام » لأنها أشمل وتضم المفيد وغير المفيد[٢٧] .

ثالثا : أخذ على القزوينى لفظة « الخلوص » فى تعريفه لفصاحة المفرد بقوله : « .. خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس » ، فالتفتازانى يرى أن تفسير الفصاحة « بالخلوص » لا يخلو من تسامح[٢٨] . وهذا التفسير المخصوص بالعدمية كان من الأفضل اجتنابه كما يرى السبكى ، وهو يرى أنه « كان الأحسن اجتناب لفظ الخلوص لغلبة استعماله فى الانفكاك عن الشىء بعد الكون فيه ، وليس الأمر هناك كذلك .. » . إن الخلوص من هذه الأمور عبارة عن عدمها . فهو تعريف بالأمور العدمية ، وإنما يكون التعريف بالذاتيات أو الخواص الوجودية ، فكان ينبغى أن يقال : الفصاحة : التئام الحروف ، وكثرة الاستعمال ، وموافقة القياس .. »[٢٩] .

ويقصد الشيخ بهاء الدين بكلمة « القياس » قياس التصريف ، كما يقصد بكلمة « الاستعمال » استعمال العرب .

رابعا : وقد أخذ عليه أيضا قوله « مخالفة القياس اللغوى » ، فلقد ذكر الشيخ بهاء الدين السبكى أنه كان ينبغى أن يقال : إن مخالفة القياس إنما تخل بالفصاحة حيث لم تقع فى القرآن[٣٠] لأن الذى خالف القياس وكثر استعماله

---

(٢٦) شروح التلخيص ص ٧١ .
(٢٧) شروح التلخيص ص ٧٣ ـ ص ٧٤ .
(٢٨) المصدر نفسه ص ٧٧ .
(٢٩) المصدر نفسه ص ٧٦ ـ ص ٧٧ .
(٣٠) المصدر نفسه ص ٨٨ .

وورد فى القرآن يعد فصيحا ، فضابط المخالفة عند السبكى هو اجتماع عـــدم الاستعمال مع عدم الورود فى القرآن الكريم .

خامسا : وقد أخذ عليه قوله فى فصاحة الكلام : « خلوصه مما ذكر ، ومن كثرة التكرار ، وتتابع الإضافات .. »[٣١] ، فلقد ذكر السبكى أنه لم يتبين مقصود المصنف وفى ذلك نظر فى رأى السبكى : « قد يكره تتابع الإضافات بشروط أن تكون ثلاثا فأكثر ، وألا يكون واحد منها جزءا أو كالجزء ، وألا يكون المضاف اليه الأخير ضميرا ، وأن يكون فيها إضافة فى علم كقول أبى سفيان : لقد أمَر أمْر ابن أبى كبشة . فليس فى ذلك استكراه .. »[٣٢] .

هذه بعض الآراء التى انتقد بها شراح التلخيص الخطيب القزوينى ، وهى فى جملتها توضح المفهوم الاصطلاحى لكلمة « فصاحة » الذى استقر وضعه عند القزوينى .

ويرى السبكى أن أكثر الناس قد عرفوا الفصاحة تعريفات لا تخرج عما قاله الخطيب القزوينى تقريبا فهى فى مضمونها تعريف واحد ، لكن تعريفاتهم لفصاحة المتكلم كثيرة جدا ، وهى مستمدة مما ذكره الخطيب القزوينى فى الإيضاح

وإذا كان هذا هو المفهوم الاصطلاحى للفصاحة ، فما العلاقة التى بينها وبين البلاغة ... ؟

العلاقة بين الفصاحة والبلاغة

رأينا فيما سبق مراحل تطور المفهوم الاصطلاحى للفصاحة ويجدر بنا ونحن نتلمس العلاقة بين الفصاحة والبلاغة أن نذكر المفهوم الاصطلاحى للبلاغة بالصورة التى استقر عليها أخيرا كما حددها رجل كالخطيب القزوينى ومن سار فى ركابه وللمتقدمين الذين تحدثوا عن البلاغة أقوال كثيرة وهى تصف جوانب

---

(٣١) المصدر نفسه ص ١١٢ .
(٣٢) المصدر نفسه ص ١١٧ .

للبلاغة فقط ولا يقصد بها التعريف الشامل كالتى جمعها الجاحظ فى البيان والتبيين ونقلها عنه المتأخرون من بعده ، مثل الحوار الذى جاء فى البيان والتبيين عن معنى البلاغة عند الفارسى والرومى والهندى واليونانى ، والذى ورد فى الصحيفة الهندية ، وما ورد أيضا عن ابن المقفع وسهل بن هارون ، وعمرو بن عبيد وبشر ابن المعتمر وثمامة بن أشرس وغيرهم . فهذه أوصاف للبلاغة ربما تمثل فى مجموعها صورة كاملة للبلاغة .

ولقد استطاع الخطيب القزوينى أن يستخلص تعريفا لها وهو مستمد من آراء من سبقوه ، يقول فى الإيضاح : « . . وأما بلاغة الكلام فهى : « مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته(٣٣) .

ويرى الخطيب أن مطابقة الكلام لمقتضى الحال هى ما يسميه عبد القاهر بالنظم وينقل عبد القاهر قوله : النظم تآخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام .

لذلك يصف البلاغة بأنها : « صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب . وكثيرا ما يسمى ذلك فصاحة أيضا . وهو مراد الشيخ عبد القاهر بما يكرره فى دلائل الاعجاز(٣٤) .

هذا عن بلاغة الكلام ، أما رأيه فى بلاغة المتكلم فهى فى نظره :

« ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » . .

ويحاول القزوينى أن يخلص من كلامه هذا إلى أمرين هامين كان لهما الأثر الكبير فى توجيه البلاغة من بعده ، وأحدهما : أن كل بليغ كلاما كان أو متكلما فصيح » ، وليس كل فصيح بليغا . وهذا المفهوم قد أخذه عن الخفاجى كما أشرنا قبل ذلك .

---

(٣٣) شروح التلخيص ص ١٢٢ .
(٣٤) شروح التلخيص من ص ١٣٤ : ص ١٣٦ .

والثانى : أن البلاغة فى الكلام مرجعها : أ ــ إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، ب ــ إلى تمييز الكلام الفصيح من غيره .

وهو بهذا القول يحاول أن يحدد موضوعات علوم البلاغة التى أكملها بعد السكاكى ، ويرى أن مايحترز به عن الخطأ هو علم المعانى .وما يحترز به عن التعقيد هو علم البيان . وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، وفصاحته هو علم البديع[٣٥] .

لكننا نرى أن كثيرا من علماء البلاغة قد يسمى العلوم الثلاثة بالبيان ، وبعضهم سمى الأول علم المعانى ، وبعضهم سمى علم البيان والبديع علم البيان ، كما نرى أن علم البديع كان أحيانا يطلق على الثلاثة . والذى وضع هذه العلوم هو السكاكى وأكملها القزوينى وغيره ..

والذى يهمنا الآن أن نتبين العلاقة بين البلاغة والفصاحة ، وتظهر العلاقة بين اللفظتين لو أعدنا النظر فى المعنى الاصطلاحى الذى استقر لهما .

ونلاحظ منذ البداية أنهم عرّفوا فصاحة المفرد والكلام والمتكلم ، ولكنهم لم يعرفوا إلا بلاغة الكلام والمتكلم فقط ، ولذلك نجدهم يقولون : « . . كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة . . » [٣٦] .

ومن ذلك نجد أن كلمتى « فصاحة » و « بلاغة » تشتركان فى أن كل واحدة منهما تقع صفة لشيئين، أحدهما :وقوعهما صفة للكلام كما نقول قصيدة فصيحة أو بليغة وجملة فصيحة أو بليغة ، والثانى : وقوعهما صفة للمتكلم مثل قولنا هذا شاعر فصيح أو بليغ وكاتب فصيح أو بليغ .

وتنفرد الفصاحة ــ كما ذكرنا ــ فى كونها صفة للمفرد فنقول كلمة

---

(٣٥) شروح التلخيص ص ١٤٩ ــ ص ١٥١ .
(٣٦) شروح التلخيص ص ٧٤ .

فصيحة ولانقول : كلمة بليغة ، إلا إذا دلت لفظة « كلمة » على « الكلام » واستعملت مجازية كما فى قولنا : « ألقى المعلم على تلاميذه كلمة بليغة » . فكلمة هنا مجاز مرسل ذكر الجزء وأراد الكل .

ولعلنا نجد فى تعريف « البلاغة » — كما استقر أخيرا علاقة بين اللفظتين ، فالبلاغة كما حددها القزوينى : « مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » .(٣٧) هذا عن بلاغة الكلام أما بلاغة المتكلم عنده « هى ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ .. »(٣٨) .

ونلاحظ أن تعريفه الكلمة بلاغة متضمن الفصاحة ، ومعنى هذا أن الفصاحة شرط فى البلاغة . ولا توجد البلاغة إلا بفصاحة الكلام ، ومن ثم نجد أن فصاحة الكلمات شرط ضمنى لأن فصاحة الكلام لا تتحقق إلا بفصاحة الكلمات ، وعلى ذلك تسقط صفة البلاغة عن كلام قد خلا من الفصاحة حتى لو طابق الكلام مقتضى الحال .

كما نجد فى تعريفه لبلاغة المتكلم ما يبين العلاقة بينها وبين الفصاحة فقوله : « هى ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » ، مرتبط ببلاغة الكلام ، فالكلام البليغ الذى هو كالشرط فى بلاغة المتكلم يعتمد على الفصاحة كما أشرنا آنفا .

ويحاول القزوينى أن يقرر هذه الحقيقة فى صورة مختلفة ، وذلك عندما يحاول وضع عاملين ترجع البلاغة إليهما وذلك عندما يقول :

« .. وقد علم بما ذكرنا أمران : أحدهما أن كل بليغ كلاما كان أو متكلما فصيح ، وليس كل فصيح بليغا . والثانى أن البلاغة فى الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره »(٣٩) .

---

(٣٧) شروح التلخيص ص ١٢٢ .
(٣٨) شروح التلخيص ص ١٤٢ .
(٣٩) شروح التلخيص ص ١٤٤ ـ ص ١٤٥ .

ونلاحظ أن ما جاء فى الأول من كلام الخطيب القزوينى مستمد مما تحدث عنه ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة ، وكان منطلقا لتفسير العلاقة بين الفصاحة والبلاغة . ولقد اتجهت هذه التفسيرات اتجاهات مختلفة ومتباينة ونستطيع أن نستخلصها ونجملها فيما يلى :

أولا : اتجاه يرى الفصاحة شرط فى البلاغة لا تتحقق إلا بوجودها ، وهى أكثر مجالا من البلاغة ، وهو اتجاه القزوينى كما فعل فى الإيضاح ، ولذلك نجد القزوينى يقدم الفصاحة على البلاغة أثناء تناوله لهما بالشرح .

ثانيا : اتجاه يرى أن اللفظتين مترادفتان ، وهو اتجاه قديم ظهر من استعمال اللفظتين بمدلول واحد كما فعل الجاحظ وعبد القاهر الجرجانى والباقلانى والرمانى ، ويرى صاحب مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح (ابن يعقوب المغربى) أن إطلاق لفظ الفصاحة على معنى البلاغة واقع فى ألسنة أهل الفن كثيرا[٤٠] كما ينقل بهاء الدين السبكى عن الجوهرى قوله : « البلاغة الفصاحة[٤١] » .

ويحاول السبكى أن يفسر ما قاله الجوهرى بما يتفق مع ما فى ذهنه من تصور عنها فيقول معلقا على جملة الجوهرى « والظاهر أنه يقصد بذلك أن البلاغة تكون فى الكلمة كما تكون فى الكلام ، وذلك لا يوجب ترادفا ، بل يوجب أن كل محل صلح للفصاحة صلح للبلاغة وإن اختلف معناهما . وقد صرح جماعة بأن بين البلاغة والفصاحة تغايرا ، وأن كل ما صلح لأحدهما من كلام ومتكلم وكلمة صلح للأخرى[٤٢] والسبكى هنا يحاول أن يفسر كلام الجوهرى بأن اللفظتين غير متساويتين فى المدلول .

وينتج عن هذا التفسير مخالفة لما ورد عن القزوينى والخفاجى وابن الأثير

---

(٤٠) شروح التلخيص ص ١٣٦ .
(٤١) شروح التلخيص ص ٧٤ .
(٤٢) شروح التلخيص ص ٧٤ ـ ص ٧٥ .

من أن « كل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا » وتكون النتيجة أن « أن كل فصيح بليغ أيضا » وحتى ولو لم يقل السبكى بالترادف فى اللفظتين .

ثالثا : اتجاه يرى العلاقة بينهما هى العموم والخصوص ، وهذا الاتجاه قد قام على ما قاله الخفاجى ونقله عنه تابعوه فى التفريق بين البلاغة والفصاحة وهو « كل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا » . وعلى هذا الأساس رأى بعض علماء البلاغة مثل ابن يعقوب المغربى صاحب « مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح » أن البلاغة أخص من الفصاحة ، والفصاحة أعم منها ، وذلك يتضح من قوله : « نعلم من أخذ الفصاحة فى تعريف البلاغة أن كل بليغ سواء كان ذلك البليغ متكلما أو كلاما فصيح لأن البلاغة أخص من الفصاحة ، وكلما وجد الأخص وجد الأعم ولا عكس كليا أى لا يصدق كل فصيح بليغ ، وهذا هو المعنى بالعكس اللغوى ، وذلك لأن الفصاحة أعم ، ولا يلزم من صدق الأعم صدق الأخص[٤٣] .

وينقل السبكى عن ابن الأثير مثل هذا الكلام فيقول : « وقال ابن الأثير : البلاغة شاملة للألفاظ والمعانى ، فهى أخص من الفصاحة . كالإنسان مع الحيوان ، فلذلك نقول : كل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا[٤٤] .

كما ينقل حازم القرطاجنى قوله : « الفصاحة أخص من البلاغة »[٤٥] .

أما بهاء الدين السبكى فإنه يعترض على تحديد العلاقة بين اللفظتين بالعموم والخصوص ويرى رأى ابن الأثير فى ذلك فاسدا . ويسلك السبكى فى ذلك اتجاها مغايرا للاتجاهات السابقة . وهو الاتجاه الرابع فى تصورنا .

---

(٤٣) شروح التلخيص ص ١٤٢ .

(٤٤) شروح التلخيص ص ٧٥ .

(٤٥) شروح التلخيص ص ٧٥ — من الملاحظ ان ما أورده السبكى عن حازم القرطاجنى مبتور من كتاب حازم ، ولهذا فان ما أورده السبكى يكمل ما لم يرد فى كتاب منهاج البلغاء لحازم .

رابعا : اتجاه يرى العلاقة بينهما هى الكل والجزء وهو رأى السبكى كما أشرنا فهو يصرح بأنه ليس بين حقيقتى الفصاحة والبلاغة عموم وخصوص بل هى كل وجزء ، فالبلاغة كل ذو أجزاء مترتبة ، والفصاحة جزء غير محمول .. ونراه يكمل فكرته عن العلاقة بينهما عندما يعلق على ما قاله ابن الأثير فيقول : « .. هذا الكلام أيضا ظاهر الفساد ، وليست الفصاحة أعم من البلاغة ولا العكس ، بل الفصاحة جزء البلاغة ، وإنما هو سمى المركب تركيبا غير حملى أخص ، والمفرد أعم ، وجعل الفصاحة عامة والبلاغة خاصة لاشتمالها على الأمرين ثم عبر عن ذلك بالعام والخاص ، وإنما هو كل وجزء[٤٦] .

ونلاحظ أن قول السبكى بأن العلاقة بين الفصاحة والبلاغة تقوم على الكلية والجزئية ليس من ابتكاره بل أخذه عن الخفاجى وذلك عندما يقول فى سر الفصاحة :

« .. وفى البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزءيها ، فكلامى على المقصود — وهو الفصاحة — غير متميز إلا فى الوضع الذى يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره[٤٧] .

هذه الجوانب التى تمثل العلاقة بين اللفظتين قد استخلصناها من تناول البلاغيين لهما بالتعريف والتحديد ، وهذه العلاقات هى فى رأينا أهم ما ذكر عنهما فى هذا الصدد ، وهناك جوانب ارتباط بينهما آثرنا عدم تناولها بالتحليل لأنها متضمنة فى هذه الجوانب مثل : العلاقة التى توجد بين مقتضى الحال والفصاحة وهى علاقة لنستطيع أن نسميها بالعلاقة « التكاملية » أى أن كليهما يكمل الآخر ، أو يقترن مع الآخر حتى تتحقق البلاغة ، فلا بلاغة بغياب أحدهما عن الآخر . لكننا لم نفصل هذا الجانب من العلاقة لأننا أشرنا فيما سبق إلى أن الفصاحة شرط للبلاغة كما وضحنا فى « أولا » .

---

(٤٦) شروح التلخيص ص ٧٥ .
(٤٧) سر الفصاحة ص ٥١ .

وهنا جانب آخر يمكن أن يوضح العلاقة بين اللفظتين وهو الاتجاه الذى يمكن أن يبين علاقة اللفظتين ببعض القضايا كعلاقتهما بقضية اللفظ والمعنى ، أى : هل العلاقة بينهما من صفات اللفظ أو المعنى ... ؟ لقد كثرت الآراء فى هذا الجانب وإنما قد اكتفينا بما أوردناه فيما سبق عن المفهوم الاصطلاحى والمدلول اللغوى لهما[٤٨] وسنعرض لهذه العلاقة فيما سوف نتناوله إن شاء الله فى الفصل الذى سنعقده عن علاقة الفصاحة بعلم الدلالة أو المعنى .

ونجد أنفسنا الآن أمام قواعد الفصاحة أو شروطها كما فهمها البلاغيون لنتبين كل قاعدة من قواعدها ، محاولين تلمس جذورها ونشأتها وتطورها بالتأصيل والتقويم .

---

(٤٨) تناولنا الحديث عن علاقة اللفظ بالمعنى فيما كتبناه عن علاقة علم الدلالة بالفصاحة ـ وكذلك فى الفصل الذى كتبناه عن علاقة الأصوات اللغوية بالفصاحة .